مبارك الميلي ودوره في حركة الإصلاح العقدي بالجزائر
من خلال رسالة
"الشرك ومظاهره".

د. قاصري محمد السعيد/ جامعة المسيلة.

مقدمة:

منذ أن وطأت أقدام الاستعمار الفرنسي الجزائر سنة 1246هـ/ 1830م؛ لم تتوان الإدارة الاستعمارية في تبني سياسة استدمارية استهدفت بموجبها كل المقومات الثقافية والحضارية للشعب الجزائري، فهدّمت المساجد وأحرقت المدارس والزوايا، وقامت بإعدام ونفي وتهجير الفقهاء والعلماء. ولقد كان لهذه السياسة أثر سلبي عميق وخطير جدا على المجتمع الجزائري، أثَرُهُ عبّر عنه المؤرخ أبو القاسم سعد الله بمرحلة إطفاء الشموع[1].

إن هذه السياسة اللاثقافية الإستدمارية أفرزت لنا فراغ روحي كبير جدا على المستوى الفكري والعقدي عكسته مظاهر عدة: تفشي الجهل والأمية في أوساط المجتمع الجزائري، وانتشار البدع والخرافات والمنكرات؛ كالسحر والشعوذة وزيارة الأضرحة والأولياء والتبرك بهم، وسيادة ثقافة الولي والمرابط والشيخ وتقديسهم. وقصد

1 -الحركة الوطنية الجزائرية، ج. 1، القسم الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص. 383.

الإبقاء على هذه الوضعية الثقافية والفكرية والعقدية المغشوشة استأجرت فرنسا مجموعة من الأئمة والفقهاء والمدرسين لتنفيذ وتجسيد هذا المشروع الإستدماري الخطير الذي سَيُقيّد حركة الشعب الجزائري ويجعله عبدا لهذه الظواهر، ويتخلى بموجب ذلك عن القيام بواجبه الوطني المقدس وهو الجهاد في سبيل الله، وراحت تغدق على هؤلاء المستأجرين المزيد من الأموال والمناصب وبرانيس الوظيفة والنياشين والأوسمة[1].

في ظل هذه الظروف الحالكة سخّر الله تعالى لهذه الأمة رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، شمّروا على سواعدهم لمواجهة هذا الظلال والفساد العقدي الكبير، بعدما أخذوا قسطا هائلا من شتى العلوم والمعارف في عديد الجوامع الثقافية التي نهلوا منها كالزيتونة والأزهر الشريف، وجامع القرويين بفاس؛ وبذلك تعددت مشارب الإصلاح وزعمائه. ومن بين أهم الرواد الجزائريين الذين اهتموا بالإصلاح العقدي وألفوا حوله: المؤرخ والمصلح والعلامة والفيلسوف الشيخ مبارك بن محمد الهلالي الميلي من خلال مؤلفه الشهير والمتميّز الذي أطلق عليه اسم"**رسالة الشرك ومظاهر**". وبناء عليه سنسعى من خلال هذه المداخلة التي تصب في صميم الملتقى إلى تحقيق جملة من المكاسب العلمية والمعرفية، مكاسب يمكن حصرها في النقاط التالية:

1. إعادة الاعتبار للشيخ مبارك الميلي العصامي الذي استطاع أن يجمع بين أن يكون مؤرخا ومفكرا ومصلحا وفيلسوفا وكاتبا وفقيها ومدرسا وإماما..الخ،

---

1 -بخصوص هذه المسألة يراجع ما كتبناه في مقالنا الموسوم بـ: موقع المسجد في المشروع الثقافي الاستعماري، (فصل الفتوى) المنشور في مجلة المعيار، ع. 10، الصادرة عن كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، شعبان 1426هـ/ سبتمبر 2005م، ص-ص. 163-191. حيث أصبح كثير من أئمة المساجد والفقهاء يُمجّدون حكام فرنسا وسياستهم في الجزائر.

لأنه أثناء قراءتنا واطلاعنا على نشاط زعماء الحركة الإصلاحية في الجزائر وجدنا أن جل الدراسات الأكاديمية تكاد تهمل هذه الشخصية الجديرة بالاهتمام، في الوقت الذي أخذت فيه كثير من الشخصيات الإصلاحية نصيبها من البحث والدراسة.

2. التعريف برسالة الشرك ومظاهره التي تُعد أول تأليف جزائري ظهر في باب العقيدة حسب شهادات كثير من معاصريه التي سنتطرق لها فيما بعد، كونه شخّص جل مظاهر الفساد العقدي التي كان يعاني منها المجتمع الجزائري آنذاك، هذا من جهة. ومن جهة أخرى غايتنا هي دعوة الباحثين المتخصصين في هذا المجال إلى دراسة رسالة الشرك ومظاهره دراسة علمية أكاديمية.

3. دعوة الجزائريين عامة والمثقفين خاصة إلى تثمين رسالة الشرك ومظاهره والاعتزاز بها، كونها تعكس وتعبر لنا بصدق عن المستوى الثقافي والفكري الذي وصل إليه كثير من المصلحين الجزائريين؛ على غرار جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد بن الحسن الحجوي في المغرب. وعليه فإذا كانت المرجعية العلمية للمهتمين بالحركات الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي تعود بهم مثلا إلى قراءة: **العروة الوثقى** لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، **ولماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم** لأمير البيان شكيب أرسلان..الخ، فإنه بات من الضروري جدا العودة إلى قراءة رسالة الشرك ومظاهره واعتمادها وتدريسها في المدارس والمعاهد الإسلامية الجزائرية.

4. من خلال عملية المقاربة التي أجريناها بين ما كتبه الميلي حول ظاهرة الشرك ومظاهره التي كانت تنخر جسم المجتمع الجزائري في القرن الماضي، وبين واقع الحال الذي نحن عليه اليوم. وقفنا وللأسف الشديد على واقع خطير يكاد يشبه

أو يفوق ما كان عليه في الماضي، خصوصا في القرى والبوادي حيث ما زال الناس يعيشون على وَقْع الشرك ومظاهره التي حذّر منها الميلي منذ زمن بعيد، ومن مظاهر ذلك: الزردة، الغفارة، الذبح لغير الله (النُشرة)، التوسل بالقبور والتبرك بها، تقديس المرابطين والمشعوذين والخوف منهم دون الله تعالى، ممارسة السحر والشعوذة بمختلف أشكاله وأساليبه، فلا تكاد تخلو قرية أو بادية أو ريف جزائري –وحتى المدن الرئيسة– من هذه المظاهر، ولعل ما بات يُذاع ويُسمع وتتطرق له مختلف وسائل الإعلام إلا خير دليل على ذلك. وعليه فإنه بات من الضروري جدا تسخير كل الكفاءات والطاقات سواء منها الرسمية أو الشعبية لمواجهة هذا الفساد العقدي الذي فتح الباب على مصراعيه أمام ظواهر وآفات أخرى كآفة التنصير التي بات يتعرض لها شعبنا العزيز ووطننا الغالي هنا وهناك، وبالتالي فانعقاد هذا الملتقى وفي هذا الوقت بالذات لم يكن من باب الصدفة بقدر ما كان نابعا من باب الفهم والإدراك الذي لا يفهمه إلا أولي الألباب.

وقصد معالجة هذا الموضوع في اشكاليته المطروحة التي يدور حولها هذا الملتقى العلمي المتميّز فإننا سنتناول موضوع مداخلتنا هاته –بعد المقدمة طبعا–وفق العناصر الرئيسية التالية:

- مولد ونشأة الشيخ مبارك الميلي.
- التحاقه بجامع الزيتونة بتونس.
- عودته إلى الجزائر وانتصابه للتدريس والتأليف بالأغواط.
- استقراره بميلة ومدى إسهاماته الإصلاحية والعقدية بها.
- التعريف برسالة الشرك ومظاهره.

- قيمة رسالة الشرك ومظاهره العلمية والعقدية.
- مضمونها.
- أثرها على المجتمع الجزائري أثناء صدورها وردود الفعل المختلفة حولها.
- أثر فكر الشيخ مبارك الميلي في الواقع الجزائري المعاصر.

1-مولد ونشأة الشيخ مبارك الميلي:

هو مبارك بن محمد بن مبارك الميلي الهلالي، ولد في حدود سنة 1897[1]م بدوار أولاد مبارك بنواحي الميلية، ينحدر من عائلة عريقة هي عائلة الحاج رابح؛ وعندما بلغ سن الرابعة توفي والده فكفله جده الحاج رابح إلى أن بلغ سن العاشرة حيث توفي جده أيضا وانتقلت كفالته إلى عمّيه سي علاوة وسي أحمد، اللذين أدخلاه في سن مبكرة كتّاب القرية لتعلم وحفظ القرآن الكريم؛ فأظهر تفوقه على سائر أقرانه في سرعة الفهم والحفظ وهو ما لفت انتباه شيخه أحمد بن الطاهر مزهود الذي يكون قد شجّعه على الالتحاق بمدينة ميلة لمواصلة تعلمه[2].

---

1 -هناك اختلاف حول تاريخ ميلاده بين من ترجموا له:

-أحمد بوزيد قصيبة: ((حياة رجل الإرادة مبارك الميلي 1898-1945))، البصائر، ع. 26 ص. يحدده بسنة 1898م.

-أحمد صاري: شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، ص. 32 يحدده بسنة 1897.

-أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ص. 404 يحدده بسنة 1898.

-عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص. 325 يحدده بسنة 1898.

2 -أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص. 409.

ويبدو أن التحاقه بمدينة ميلة كان خفية وبعيدا عن أنظار عمّيه اللّذين كانا يعملان على إبقائه عندهما من أجل استغلاله في رعاية ماشيتهما والقيام بأعمال الفلاحة، وهذا ما وقفنا عليه من خلال ما كتبه تلميذه أحمد بوزيد قصيبة في مقال له بجريدة البصائر: « تأبط مبارك الفتى "لوحته" وأفلت من مصيره الذي كان يريده له عماه وترك قريته طالبا أرضا سواها غير ملتفت إلى ما وراءه، وسار راجلا نحو ميلة لا يلوي على شيء يريد التعلم ويريد الحياة»[1].

وعندما دخل ميلة ساقت له العناية الإلهية من يقوم بتدبير شؤونه ويحقق له مراده ويعينه على نيل مبتغاه، فقيضت له المحسن الكبير السيد مصطفى أبو الوصف من أعيان ميلة[2]، وبميلة واصل تعلمه على يد الشيخ بن منصور محمد الميلي، ونتيجة لعوامل النبوغ والتفوق ولصفاته الأخلاقية الحميدة نشأت بينهما علاقة صداقة متينة أثمرت في الأخير بالمصاهرة حيث تزوج مبارك الميلي إحدى بنات شيخه[3]. وخلال

1 –أحمد بوزيد، قصيبة: ((حياة رجل الإرادة مبارك الميلي 1898–1945))، البصائر، ع. 26، ط. 1، (طبعة خاصة بوزارة المجاهدين)، الإثنين 26 ربيع الثاني 1367هـ/ 08 مارس 1948م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1427هـ/ 2006م، ص. 206

2 –يعد من بين أعيان المدينة وأثريائها، كان يشغل حينها منصب المستشار العام، أولى اهتماما كبيرا بمبارك الميلي لما أظهره من عوامل النبوغ والتفوق، فآواه وأطعمه ووفر له كل سبل الراحة والاستقرار لكي يتفرغ لطلب العلم، حتى أنه عندما وصل سن التجنيد أعفاه من الجندية الإجبارية في الجيش الفرنسي سنة 1916 إذ فدته والدة هذا المحسن بمال سلمته لمن ذهب مكانه، وظلت خدمات هذه الأسرة لمبارك الميلي حتى أثناء مقامه بجامع الزيتونة فيما بعد بتونس. يراجع كل من: أحمد بوزيد قصيبة: ((حياة رجل الإرادة مبارك الميلي 1898–1945))، البصائر، ع. 26، أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ص. 410.

3 –أحمد، صاري: شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، تقديم الدكتور أبو القاسم سعد الله، المطبعة العربية، غرداية، 2004، ص. 34.

مدة إقامته بميلة التي استغرقت حوالي ثلاث سنوات أتم خلالها حفظ القرآن الكريم والنصف من متن خليل، ثم توجه بعدها نحو مدينة قسنطينة سنة 1919 نظرا لشهرتها العلمية ومكانتها الثقافية والعلمية التي اكتسبتها بفعل نشاط الإمام عبد الحميد بن باديس، فالتحق فور وصوله بمدرسة ابن باديس.

غير أنه لم يلبث بها طويلا —سنة واحدة فقط–حيث توجه بعدها نحو جامع الزيتونة بتونس، وحسب ما ذكره أحمد بوزيد قصيبة دائما في روايته فان ابن باديس هو الذي قد أشار على هذا الفتى بالالتحاق بهذه المنارة العلمية: « فأعجب به أستاذه وأحبه كثيرا وقربه إليه، وعلم أن الجزائر ستنال على يديه خيرا كثيرا فآزره واعتنى به وشجعه ثم أرسله إلى تونس بعدما مكث سنة بقسنطينة»[1].

2–التحاقه بجامع الزيتونة بتونس:

التحق مبارك الميلي بتونس في حدود سنة 1919[2]م لمواصلة تعليمه بجامع الزيتونة، وظل ينهل من شتى العلوم والمعارف بهذه المنارة العلمية الرائدة في المغرب العربي، ويحدثنا أحمد توفيق المدني عن مبارك الميلي أثناء وجوده بتونس بحديث نستشف من خلاله عظمة الرجل وشهامته، ومما جاء في روايته: « عرفت مبارك الميلي

1 –أحمد بوزيد، قصيبة: المصدر السابق، ص. 207.

2 –هناك اختلاف أيضا بين من ترجموا له حول تاريخ انتقاله إلى تونس:

–أحمد بن ذياب: ((الأستاذ مبارك الميلي والصحافة))، الأصالة، ع. 68–96، ص. 97، يحدده بسنة 1922.

–أبو عمران الشيخ: معجم مشاهير المغاربة، ص. 528 يحدده بسنة 1922.

–أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ص. 412 يحدده بسنة 1927.

–أحمد صاري: شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، ص. 35 يحدده بحوالي سنة 1921 أو 1922م.

–عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص. 325 يحدده بسنة 1922.

أثناء معركة الكفاح بتونس، وكان بعد دراسته بها وملء وطابه منها يتردد عليها بين الفينة بعد الفينة، يغشى مجالسها ويتصل بشيوخها وطلبتها، ويحيط به في رحاب جامع الزيتونة العامر الجم الغفير ممن سبروا غور مواهبه، واطلعوا على اتساع مداركه، بل منهم من كان يحدثني ويقول: إن هذا رجل جزائر الغد، ومفجر ينبوع النهضة العتيدة الصالحة التي سوف تنفخ في الصور، فتنفض عن البلاد طبقة الرماد، وتحي الأمجاد»[1]. ولقد مكث بتونس مدة ثلاث سنوات نال على إثرها شهادة التطويع سنة 1924 وهو تاريخ عودته إلى الجزائر.

3-عودته إلى الجزائر وانتصابه للتدريس والتأليف بالأغواط:

أثناء عودته من تونس توجه مباشرة نحو مدينة قسنطينة؛ وكان أهم انجاز حققه بها سنة 1925 تأسيسه لقسمين للتعليم على النمط العصري، واحدا بسيدي بومعزة والآخر بسيدي فتح الله، فكان أول معلم أنشا ودشن التعليم المدرسي العصري المنتشر آنذاك في كامل القطر الجزائري[2]؛ وبعد مرور 14 شهرا التي قضاها بقسنطينة توجه نحو مدينة الأغواط بالجنوب الجزائري الكبير سنة 1926 لجس النبض والتأكد بنفسه من الميدان الذي ينوي الرحيل إليه[3]، وعليه ففي السنة الموالية يكون قد انتقل نحو هذه المدينة التي سيستقر بها مدة من الزمن –تقدر بـ7سنوات تقريبا-. والمرء هنا

1 -أحمد توفيق، المدني: حياة كفاح، القسم الثاني في الجزائر 1925-1954، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، ص. 7.

2 -أحمد بوزيد، قصيبة: المصدر السابق، ص. 207.

3 -أحمد، صاري: المرجع السابق، ص. 37.

يلاحظ أن توجه الميلي إلى الأغواط لم يكن صدفة بقدر ما كانت تقف وراءه عدة دوافع حصرها لنا الدكتور أحمد صاري في سببين رئيسيين[1]:

1. -رغبة ابن باديس في توزيع تلامذته النجباء، ومن بينهم الميلي، على مختلف أنحاء القطر الجزائري لنشر الفكر الإصلاحي وتأييد دعوته.

2. -الاقتراح الذي قدمه شيخ الطريقة القادرية عبد العزيز بن الهاشمي إلى أعيان الأغواط بجلب الميلي إلى هذه المدينة، وذلك تلبية لتنفيذ وصية والده الهاشمي القاضية ببناء مدرسة حديثة بالأغواط سنة 1922.

استمر بقاء الميلي بمدينة الأغواط من سنة 1927 إلى غاية 1933 وطيلة هذه الفترة الزمنية كانت حياته حافلة بالنشاط والحيوية التي جمع خلالها بين عدة مهام ووظائف يمكننا الإشارة إليها في العناصر الآتية:

1-التعليم بالزاوية القادرية التي نزل بها منذ التحاقه بالأغواط.

2-إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد في الجامع العتيق.

3-تأسيس الجمعية الخيرية الأغواطية لمساعدة الفقراء والمساكين والأيتام[2].

4-تأليفه لكتاب مهم جدا كانت الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية في أمس الحاجة إليه، وهو كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث[3]. ويذكر أحمد توفيق المدني

1 -نفسه، ص-ص. 36-37.

2 -أحمد بوزيد، قصيبة: المصدر السابق، ص. 212.

3 -أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، المرجع السابق، ص. 409.

أنه كان له دور في تحرير هذا الكتاب؛ وهذا ما نلمسه من خلال نص بعض الرسائل التي كتبها الميلي له أثناء انهماكه في تحرير الجزء الأول من الكتاب وهو بالأغواط[1].

5-تعاونه مع بعض المخلصين والمهتمين بميدان الثقافة والتعليم من الأغواطيين على تدشين مدرسة تعليمية جديدة تدعى "مدرسة الشبيبة الأغواطية التي تعد أول المدارس النادرة في ذلك الوقت"[2].

6-المساهمة في كتابة عدة مقالات في مجلة الشهاب حول كثير من القضايا التي كانت مطروحة على الصعيدين الوطني والعربي الإسلامي.

7-مساهمته في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تولى فيها أمين المال بعد تأسيسها[3].

8-الخروج بين الحين والآخر من مدينة الأغواط نحو بعض المدن لإلقاء دروس في الوعظ والإرشاد، ولقد شملت هذه العملية كل من بوسعادة والجلفة وأفلو[4].

نظرا لهذه الحيوية والنشاط التي أبداهما الميلي أثناء تواجده بالأغواط والتي لم تكن دون شك ترضي لا السلطات الفرنسية بالمدينة ولا المحسوبين عليها من الجزائريين، تحركت الدوائر الرسمية الفرنسية ومعها كثير من القوى الفاعلة في المجتمع الجزائري بالأغواط لتضييق الخناق على الميلي ودفعه على ضرورة مغادرة المدينة، وعليه فلقد أثمرت هذه العملية بقيام مدير الشؤون الأهلية بالأغواط "Jean Mirante"

1 -أحمد توفيق، المدني: المصدر السابق، ص-209-211.

2 -أحمد، بوزيد، قصيبة: المصدر السابق، ص. 212.

3 -أحمد، صاري: المرجع السابق، ص. 39.

4 - أحمد، صاري: المرجع السابق، ص. 40.

إلى الضغط على الخليفة جلول وأعيان المنطقة حتى يتخلوا عن دعمهم للميلي وهو ما تم فعلا حيث أداروا له ظهورهم وبات في وضعية لا تسمح له بالبقاء في هذه المدينة[1].

وحسب الدكتور أبو القاسم سعد الله فالميلي خرج من الأغواط باتجاه مدينة بوسعادة قصد الاستقرار بها؛ والقيام بنفس الدور الإصلاحي الذي قام به في الأغواط؛ لكن السلطات الفرنسية كانت له بالمرصاد واتهمته بالجرأة وأمرته أيضا بالخروج من بوسعادة؛ وتحت غطاء الحالة الصحية رجع إلى ميلة وانتصب للتدريس والنشاط الأدبي والإصلاحي منذ حوالي سنة 1933[2].

4–استقراره بميلة ومدى إسهاماته الإصلاحية والعقدية بها:

قبل الحديث عن هذه الإسهامات رأيت من المفيد جدا الوقوف على الأوضاع الثقافية والظروف الاجتماعية التي كانت سائدة ليس بميلة فقط بل بسائر القطر الجزائر المحتل. ويمكننا الوقوف على هذه الأوضاع من خلال التشخيص الذي أفادتنا به عدة مصادر وشواهد تاريخية، حيث شخّصت لنا ثلاثة أخطار كان يعاني منها المجتمع الجزائري: الاستعمار، والجهل والأمية، والطرقية الضالة والمنحرفة. وكل طرف من هذه الأطراف قيّد الشعب الجزائري لصالحه وجعله يعيش في دوامة من الفوضى واللااستقرار بمختلف أشكاله. ومن بين أهم هذه الشواهد:

أ–محمد علي دبوز:

---

1 – أحمد، صاري: المرجع السابق، ص. 41.

2 –تاريخ الجزائر الثقافي، ج.7، ص. 412. أحمد صاري: شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، ص. 41.

-« وكانت بعض الزوايا المنحرفة تنشر عقائد مخالفة للدين، وهي كفر والحاد مبين، فكان شيخ الزاوية مثلا يوحي لأتباعه: إن قراءة (صلاة الفاتح) أفضل من تلاوة القرآن ستة ألاف مرة؟ متأولين بأن ذلك بالنسبة لمن لم يتأدب بآداب القرآن...وأن (صلاة الفاتح) علمها النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الطريقة ولم يعلمها لغيره، وان مؤسس الطريقة أفضل الأولياء، وأن من انتسب إلى الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب، وتغفر ذنوبه الصغار والكبار، حتى التبعات، وغير ذلك من الخرافات المضللة التي هي كفر والحاد لا يقبلها امرؤ يؤمن بالإسلام»[1].

-«أما قبور المشايخ فهي أماكن الرحمة والبركات، ترى العامة الجاهلة قبل أن تصل قبر الشيخ تتمسح بجدار مقبرته، وتخشع وتنادي باكية: يا سيدي فلان جئتك مستجيرا فأغفر لي ذنبي، واقضي حوائجي، ودمر أعدائي. فتعدد حاجاتها على المقبرة...وتتضرع إلى صاحب القبر تسأله أن يقضي حاجتها...وكانت العامة مع تقديسها لمشايخ الطرق تقدس بعض الأحجار وبعض الأشجار وبعض الأماكن، فتسرج بها الشموع، وترسل فيها البخور، وتضمخها بالحناء والعطر وتقرب إليها القرابين تعتقد أنها تنفع وتضر، وكان مشايخ الطرق يؤدون هذه الخرافات والبدع ويركزونها في نفوس العامة»[2].

-«وكانت العامة الجاهلة تعتقد أنها تستطيع أن تأتي كل ما تريد من ذنوب وترتكب كل ما تشاء من معاصي السرقة والزنا، والقتل وكل الموبقات ثم تتطهر من

---

1 -محمد علي، دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج. 1، ط. 1، مطبعة البعث، قسنطينة، 1394هـ/ 1974م، ص-ص. 21-22.

2 -نفسه، ص-ص. 23-24.

كل الذنوب بانتساب إلى طريقة وبقربان تقدمه إلى شيخ الزاوية فيغفر لها ذنوبها وجرائمها...وكانت الزانية تفسق طول عامها وهي تعتقد أن ذنوب الفسق ستزول عنها إذا قربت إلى الشيخ قربان فغفر لها، وقد تقدم نفسها، وفي الخلوة إذا أعجبت الشيخ سيغفر لها كل الذنوب، وتذهب ببركة الشيخ في جسمها، وبدعواته الصالحة التي تفتح لها كل أبواب السعادة والرحمة في الدنيا والآخرة»[1].

-« واستغل الاستعمار من لا دين لهم من شيوخ ا لزوايا في قتل الدين، ونشر الفساد، وجعل هذه الأداة التي صنعت للخير معولا يهدم به الأمة في كل نواحيها، واصطنع هؤلاء الجهلة من شيوخ الطرق والمشعوذين الدجالين الذين يسيرون في ركابهم ويملئون الزاوية ويقومون بها، وسخرهم في الجوسسة وفي محاربة الإصلاح والنهضة الحديثة، وفي بث الفرقة المذهبية والجنسية، وفي توطيد التعصب المذهبي والعرقي والجهوي في النفوس، ومكن لهم في نواحيهم، فصاروا مفاتيح الحكومة الاستعمارية أيضا، يقضون الحوائج ويمنعون من عقابها، فازداد نفوذهم وكثر شرهم وصاروا هم سم الجزائر الذي يقتلها، وأداة الاستعمار الكبرى التي يهدم بها الدين، ويشوه بها سمعة الإسلام»[2].

ب-الشيخ محمد خير الدين:

-«وكانت الطرقية سهاما صوبها الاستعمار في صدور شعبنا، يشوه بها العقيدة الإسلامية الصحيحة بما تنشره الطرقية من بدع وخرافات تؤثر في نفوس العامة والبسطاء، وتقدم لهم إسلاما زائفا لا ينهض بعزيمة مؤمن، ولا يدعو إلى تربية الإرادة

1 - محمد علي، دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج. 1،نفسه، ص-ص. 22-23.

2 -نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج. 1، ط. 1، المطبعة التعاونية، 1385هـ/ 1965م، ص. 49.

القوية، بل يدعو إلى التواكل والضعف والاستسلام باسم التواكلية، وقد غذى المستعمرون هذه الأفكار الخبيثة ونشروها بواسطة هؤلاء الطرقيين بين عامة الناس»[1].

ج-جريدة المنتقد:

جاء في مقال لخبشاش محمد الصالح مشخصا أسباب التأخر والعقبات التي تقف في وجه التقدم والتي أوعزها إلى أربع موانع كبرى: « الأول (أرباب الطرق) وما أدراك ما أرباب الطرق (إلا بعضهم) فقد وقفوا حجر عثرة في طريق رقينا، بتموهاتهم التي يلقونها على الأذهان الساذجة. وافعتقادات الباطلة الفاسدة التي لم تتوخ الحق في شيء، ودعاويهم المفندة...ولئن كانت جنايتهم فضيعة فجناية الآخرين بأقوالهم، والمقلدين لهم في أفعالهم أفضع وأشنع: ولكن هل تلام العامة: والأمية ضاربة فيهم بحرابها، مصوبة عليهم سهامها؟ أجل إن الأمي لا يعذر بأميته، وإذا فالإثم اثم الجميع: إن هؤلاء السحارين الأفاكين تسلطوا على العامة تسلط المالك على المملوك بصفة كونهم زعماء الدين والداعين إلى سبيل رب العالمين: فابتزوا أموالهم وامتصوا دمائها...تالله لقد ظل هؤلاء الدجالون ومن يقتدي بهم، وأي ظلال فوق اعتقاد تنزل الوحي بعد محمد على أحد أسلافهم، وإن كانوا لا يعتقدونه وحيا صرفا إلا أنه (ابن عم الوحي)»[2].

د-محمد بوزوزو:

---

1 -مذكرات، ج. 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د. ت، ص. 105.

2 -محمد الصالح، خبشاش: ((نكبات الأمة الجزائرية))، المنتقد، ع. 04، تقديم وتصحيح عبد الهادي قطش،، دار الهدى، عين مليلة، 03 محرم 1343هـ/ 23 جويلية 1925م، ص-ص.61-62.

يتطرق إلى الظروف التي ألف فيها الميلي رسالته من خلال التشرذم والتمزق الحاصل في المجتمع الجزائري والمنقسم إلى أربعة فرق: «-فرقة لا تؤمن بالفكر والتحليل العقلي فهي جامدة على النصوص بدون فهم ولا تصرف في التطبيق وترى تفسير القرآن كفرا، -فرقة تعرف الحق وتميز بين الخير والشر ولكنها لزمت السكوت خوفا من إفساد عقيدة العوام أو إثارة غضبهم عليها، -فرقة ساخرة بهذه العقائد نافرة منها، -دجالين أقوياء بسلطتهم وسلطة الإدارة وأتباعهم عمي البصائر، بلغ بهم العمى أن صاروا يعتقدون أن الخمر تتحول في بطن شيخهم إلى عسل»[1].

في ظل هذه الظروف وهذا الانحطاط الاجتماعي والخلقي والفكري الذي لم يكن يختلف بقليل أو كثير عن الحالة العامة في أوربا خلال العصور الوسطى[2]، عاد الميلي إلى مسقط رأسه في حدود سنة 1933 ليس من أجل التقاعد كما يذكر الدكتور أحمد صاري[3] وإنما لمواصلة نشر الفكر الإصلاحي الذي كان يدعو إليه في مدينة الأغواط، ومن بين النشاطات التي قام بها في هذا الشأن:

1-تأسيس المدارس والجمعيات والنوادي الثقافية وتكوين نواة صلبة للحركة الإصلاحية بميلة.

2-تولي مهام التعليم والتدريس والإمامة بالمدرسة القرآنية والمسجد التي فتحها له أبناء المدينة.

---

1 -محمد، بوزوزو: ((نظرة في رسالة الشرك ومظاهره))، البصائر، ع. 27، 4 جمادى الأولى 1367هـ/ 15 مارس 1948م، ص. 219.

2 -عبد الكريم، بوالصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، ط. 1، دار البعث، قسنطينة، 1401هـ/ 1981م، ص. 192.

3 -أحمد، صاري: المرجع السابق، ص. 41.

3-المساهمة في إنشاء النادي الإسلامي وإلقاء الدروس والمحاضرات به.

4-تأسيس جمعية حياة الشباب[1].

5-المساهمة في بناء مدرسة حديثة وإلى جانبها جامع كبير للصلاة بعدما جمع لهما المال من التبرعات[2]، وحسب أحمد صاري دائما فإن هذا المشروع يعتبر أكبر انجاز حققه الميلي بالمنطقة[3].

ونظرا للأوضاع الفكرية والعقدية المعقدة التي كانت تمر بها المنطقة لم يتوان الميلي في المساهمة بتحرير كثير من المقالات في مجلة البصائر حول الشرك ومظاهره التي كانت تنخر المجتمع الميلي ومن ثمة المجتمع الجزائري بأكمله، وفي نهاية المطاف قام بجمع هذه المقالات وحررها في شكل كتاب جاء تحت عنوان: "**رسالة الشرك ومظاهره**". وخدمة للموضوع المعالج سنتطرق لهذا المؤلَّف وقيمته العلمية والفكرية والعقدية في العناصر التالية:

5-التعريف برسالة الشرك ومظاهره:

في ظل الأوضاع الثقافية والفكرية السائدة في المجتمع الجزائري السالفة الذكر، قام الميلي بتحرير عدة مقالات في جريدة البصائر الناطقة باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حول الشرك ومظاهره؛ في الأعداد الصادرة بالجريدة خصوصا في سنتها الأولى: من شهر شوال 1354-شوال 1355هـ/ شهر ديسمبر 1935-

1 -أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص. 413.

2 -نفسه، ص. 413.

3 -أحمد، صاري: المرجع السابق، ص. 43.

جانفي 1937م: حيث اشتملت على 18 مقالا وفق الأعداد التالية: 5-6-9-10-11-12-13-15-16-17-20-22-25-42-43-44-45-48.

ولكن مع مرور الوقت ولشعور الميلي بحاجة الجزائريين إلى تأليف كتاب خاص بإصلاح عقيدة المسلم الجزائري؛ وبإلحاح قراء جريدة البصائر والمصلحين عليه؛ قام بجمع هذه المقالات وطبعها في شكل كتاب في حدود سنة 1356هـ/ 1937م واختار له عنوان مناسب ومهم جدا تحت عنوان: "**رسالة الشرك ومظاهره**".

وللعلم هنا أن الميلي لم يكن الوحيد من بين زعماء الإصلاح الذين كتبوا رسائل وألفوا كتب حول الإصلاح لكي يستفيد منها أبناء المجتمع الجزائري ولا تبقى بعيدة عن متناولهم؛ ومن بين المصلحين الذين اختاروا هذا المنهج:

1. -جمال الدين الأفغاني ورسالته المشهورة بالرد على الدهريين التي ألفها في حيدر آباد بالهند بعد نفيه من مصر سنة 1879م، وقام بترجمتها فيما بعد الشيخ محمد عبده[1].

2. -العروة الوثقى التي ألفها كل من الأفغاني ومحمد عبده أثناء وجودهما بباريس.

3. -أبو حامد العربي المشرفي الجزائري المشهور برسالته الموسومة بـ: الرسالة في أهل الباصبور الحثالة[2].

---

1 -محمد، عبده: الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، 1985، ص-ص. 116-193.

2 -أبو القاسم، سعد الله: ((مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر))، الثقافة، ع. 75، عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، السنة 13، رجب-شعبان 1403هـ/ ماي-جوان 1983، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص. 82. ويراجع بخصوص هذا العلامة ما كتبناه في مجلة جامعة الأمير

4. -الفيوضات الوهبية في الرد على الطائفة الوهابية لأحمد بن عبد السلام بناني المغربي (ت 1819)[1]..الخ.

وعليه فالميلي تفطن جيدا إلى ضرورة طبع مقالاته حول الشرك ومظاهره في شكل كتاب حتى تسهل قراءته والاستفادة منه بدلا من أن تظل دفينة في جريدة البصائر ولا يعود إليها إلا الباحثين.

وفي الأخير يمكن القول حسب ما جاء في تعريف أبو القاسم سعد الله بهذا المؤَلَّف: إن رسالة الشرك ومظاهره هي عبارة عن كتاب في أصول الإصلاح الاجتماعي والعقائدي، وتعتبر مصدرا أساسيا لمعرفة الاهتمام الذي بنت عليه جمعية العلماء حركتها الإصلاحية في الجزائر. والذي قامت عليه الدعوة الإصلاحية في المشرق أيضا منذ ابن تيمية والشوكاني ثم محمد عبده[2].

6-قيمة "رسالة الشرك ومظاهره" العلمية والعقدية: يمكننا الوقوف على قيمة رسالة الشرك ومظاهره للميلي من خلال العناصر التالية:

1-الدعوة إلى التوحيد:

تعتبر الدعوة إلى التوحيد جوهر الإصلاح العقدي الذي دعا إليه الميلي وكل زعماء الحركات الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي: محمد بن عبد الوهاب، جمال

عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع. 24، في مقالنا الموسوم بـ: أبو حامد العربي المشرفي الجزائري وتراثه المخطوط بالمغرب الأقصى، ص-ص. 223-252.

1 -ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، أيام دراسية من 6 إلى 9 رجب 1404هـ/ 20 -23 أفريل 1983م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1407هـ/ 1986م، ص. 177.

2 -تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ص. 177.

الدين الأفغاني، محمد عبده، علي السنوسي..الخ، مما يوحي لنا بأن العالم العربي والإسلامي كان يشكو من نقص كبير في مفهوم العقيدة ويعاني من تشويش كبير من طرف عدة جهات: الاستعمار، بعض شيوخ الطرقية المنضوية تحت الاستعمار، المرابطين والمشعوذين والسحرة وغيرهم. وبالتالي فدعوة الميلي للتوحيد لم تكن نابعة من فراغ بقدر ما كانت نابعة من حالة فساد عقدي رهيبة جدا كان يعاني منها المجتمع الجزائري. ومما جاء في أقوال بعض معاصري الميلي الذين اطلعوا على رسالته قول علي الزواق من البليدة الذي جاء فيه: «قد تصفحت رسالة الشرك ومظاهره تأليف الأستاذ مبارك الميلي فألقيتها قد رفعت للتوحيد أعلاما ومحت من الشرك ظلاما وأحيت نفوسا وكسرت رؤوسا، تطمئن بها قلوب المؤمنين المخلصين وتشمئز منها نفوس المعاندين المكابرين، فامتلأت بمطالعتها بهجة وسرورا فلم أشعر إلا وقد جاشى صدري بهاتين البيتين:

كتاب أغر الطلعتين مبارك ۞ أبان ضروب الشرك فيه (مبارك)

به يدرك القراء علما وحكمة ۞ وتسمو به أفكارهم والمدارك»[1].

2-تزكية المجلس الإداري لجمعية العلماء لرسالة الشرك ومظاهره:

نظرا للقيمة العقدية لرسالة الشرك ومظاهره فإن المجلس الإداري لجمعية العلماء قرر وبالإجماع أحقية ما اشتملت عليه هذه الرسالة العلمية المفيدة، حيث وافق المجلس مؤلفها على ما فيها ودعا المسلمين إلى دراستها والعمل بما فيها، فإنه العمل بالدين[2]، وللعلم هنا أن تزكية المجلس جاءت بعدما أجازها الشيخ العربي

1 -البصائر، السنة الثانية، ع. 81، 29 رمضان 1356هـ/ 13 ديسمبر 1937م، ص. 316.

2 -تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، ص. 177، نقلا عن رسالة الشرك ومظاهره ص. 6.

التبسي الذي جاء في جوازه بهذا الخصوص: «المجلس الإداري لجمعية العلماء يقرر أن ما اشتملت عليه ((رسالة الشرك ومظاهره)) لمؤلفها الأستاذ مبارك الميلي هو عين السنة، وأن هذه الرسالة تعد من الكتب المؤلفة في نشر السنة وردع البدع...وان المجلس الإداري لجمعية العلماء يقرر بإجماع أعضائه أحقية ما اشتملت عليه هذه الرسالة العلمية المفيدة ويوافق مؤلفها على ما فيها ويدعو المسلمين إلى دراستها والعمل بما فيها فإنه العمل بالدين»[1].

3-طبيعة المصادر المعتمدة في الرسالة:

اعتمد الميلي في تأليفه هذا على مصادر قيّمة تعد من أمهات المصادر في التأليف العقدي في ذلك الوقت، مما يوحي لنا بالمرجعية العلمية الصادقة لهذه الرسالة التي لم تكن تعبر عن موقف شخصي أو سياسي بقدر ما كانت تعبر عن المنهج العلمي السليم الذي سلكه الميلي في تحرير رسالته، وهو نفس المنهج الذي سلكه عندما شرع في تأليفه لكتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ومن بين أهم هذه المصادر[2]:

-كتب اللغة وآدابها:

1. تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حامد الجوهري (ت 393هـ).
2. المصباح المنير لأحمد بن محمد الفيومي (ت770هـ).

1 -مبارك بم محمد، الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ط. 3، دار البعث، قسنطينة، 1403هـ/ 1982م، ص-ص.1-4.

2 -المصدر نفسه، ص-ص. 297-299.

3. القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت817هـ).
4. أساس البلاغة لمحمود بن عمر الزمخشري صاحب الكشاف (ت538هـ).
5. نظم التيسير في علم التفسير لعبد العزيز الديريني (ت 699هـ).

-كتب الحديث ورجاله:

1. الموطأ لأبي عبد الله مالك بن أنس (ت 179هـ).
2. شرحه المنتقي لسليمان الباجي (ت 494هـ).
3. وشرحه للزرقاني محمد بن عبد الباقي (ت1122هـ).

-كتب التفاسير:

1. تفسير البغوي الحسين بن مسعود بن إسماعيل ابن كثير وفضائل القرآن.
2. الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين عبد الرحمان السيوطي.
3. الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي محمد بن أحمد.
4. تفسير جزء عم لمحمد عبده.
5. فتح القدير تفسير الشوكاني محمد بن علي.

كما استفاد الميلي من مصادر أخرى توصل بها في وقت متأخر قبل طبع رسالته، ومنها كتاب صيانة الإنسان الذي وجد فيه نبذة عن تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، وبعض من كتاب الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد لمحمد بن علي الشوكاني، هذا إلى جانب توصله بواسطة السيد محمد نصيف من جدة بكتاب فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد لمؤلفه محمد بن عبد الوهاب؛ فاستفاد منه الميلي فوائد جمة ألحقها بمكانها في رسالته[1].

1 -مبارك بن محمد، الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، المصدر السابق، ص. 15.

4-التنويه والتمجيد الذي حضيت به رسالة الشرك ومظاهره:

لاقت رسالة الشرك ومظاهره تنويها وتقديرا كبيرين لدى كثير من الجزائريين الذين وقفوا على قيمتها العلمية والعقدية، ومن بين هؤلاء:

أ-محمد العيد آل خليفة: قرض رسالة الشرك بقصيدة رائعة ومعبرة تتكون من 29 بيتا جاء فيها

شرع الإله الدين للأتباع ۞ ودعا إليه الخلق بالإقناع
فاليه بادر بالرجوع ملبيا۞ قبل القضاء عليك بالإرجاع
وله تضرعا راغبا أو راهبا ۞ فهو الحفيظ عليك وهو الراعي
الله عزوجل ربك فادعه ۞ فهو المجيب لكل عبد داعي

...

واحذر شراك الشرك فهي كثيرة ۞ شتى المظاهر جمة الأنواع
كم واقع فيها وحسب أنه ۞ في الدين حر العقد رحب الباع
الشرك داء في البرية كامن ۞ مستفحل الأضرار والأوجاع
الشرك ستر حيك من نسج الهوى۞ غطى على الأبصار والأسماع

...

يا أمة جهلت حقيقة دينها ۞ فتفرقت فيها إلى أشياع
العاصف الزعزاع من اهوائها ۞ يشتد اثر العاصف الزعزاع
في القاع ماء كيف شئت مبارك ۞ فرديه وأطرحي سراب القاع
هذا الأخ (الميلي) فيك مثوب ۞ لله بالذكرى فهل من واع
يجلو وجوه الشرك وهي خفية ۞ للناس شأن العالم النفاع

...

اليوم من أفكاره تجنين ما ۞ تجنين من علم ومن امتاع
فأوي من التوحيد خلدا طيبا ۞ وتنشقي من عرفه الضواع
ودعي الفدام المارقين عن الهدى ۞ الخارقين حضيرة الإجماع
وعلى السلوك المستقيم فقومي ۞ عاداتك المعوجة الأضلاع
ولعل جهلك واقتحامك للردى ۞ وهواك قد آذن بالإقلاع
فترقبي حسن المثابة في الورى ۞وارجي شيوع الذكر في الأصقاع
واحيي وحيي الرضى مستقبلا ۞ كالروض خصبا كامل الامراع

ب–محمد بن بسكر: الذي قرض هو الآخر رسالة الشرك ومظاهره بقصيدة رائعة جدا تحت عنوان رسالة الشرك نور القلب والبصر؛ ومما جاء فيها[1]:

جاءتك تنذر ما في الشرك من خطر ۞ (رسالة الشرك) نو القلب والبصر
لتظهر الدين في أسمى مظاهره ۞ كحسنه يوم كان منقذ البشر
منسوجة من عيون الشرع لحمتها ۞ قول (الكتاب) و(مرفوع من الخبر)
حصينة بمتين العلم دامغة ۞ بصائب الحق لم تخط ولم تذر
شعاعها ك(مرايا الكشف) ما نظر ت ۞ الأولاح دفين الداء في الأثر
فانعم بها من كتاب كله غرر ۞ كأنها من خيوط الشمس والقمر
قد أشرقت في ظلام الشرك تكشفه ۞ كشف(الأشعة)ما في السل من ضرر
تلقفت كعصى موسى مظاهره ۞ نوعا قنوعا بماض الناب والشرر
قضت عليه بحكم الموت وانتزعت ۞ من شره كل ذي عقل وذي نظر

1 –البصائر، السنة 3، ع. 95، 12 ذي القعدة 1356هـ/ 14 جانفي 1937، ص. 52.

وأحكمت دونه سرا وملتجأ ۞ من معجز العم لا بالطين والحجر

فراح يسحب ذيل الذل وانقلبت ۞ تختل تيها بنيل النصر والظفر.

ج-محمد الطاهر الورتلاني:

أشاد في جريدة البصائر برسالة الشرك ومظاهره بكلمة ثناء تحت عنوان: "لا شكر على واجب" جاء فيها: «أخذت القلم وأردت كتابة كلمة ثناء وشكر على الجهود التي بذلها حامل لواء السنة النبوية وداحض حجج أولي الشرك والمبطلين الأستاذ مبارك الميلي في تأليفه رسالة الشرك ومظاهره بأسلوب عذب يتلذذ به القارئ كلما طوى صفحة وزاد عليها أخرى لا تعتريه في ذلك سآمة، ولا يجد في نفسه ملل، بل كلما طوى صفحة إلا واشتاقت نفسه لمثلها، وسمعت كأن هامسا يهمس في أذني قائلا: لا شكر على واجب ورددها مرارا حتى أفرغ ذهني من غيرها وأخذت أكررها بلساني ولم يحضر لي شيء من غيرها فأحببت أن أقدمها لحضرة الأستاذ عله يعذرني ويتقبلها مني كتقريظ»[1].

د. الأخضر دويدة:

كتب مقال في جريدة البصائر كلمة شكر للأستاذ مبارك ميلي تحت عنوان: أكرم بها من رسالة، جاء في مطلعه بيتا من الشعر:

رسالة الشرك أزلت الدجى ۞أنرت القلوب بنور الهدى.

«طالعت بمزيد الاغتباط وبعناية الإمعان والتدبر رسالة الشرك ومظاهره للأستاذ مؤرخ الجزائر العلامة الشيخ مبارك الميلي، فألفيتها قمرا منيرا وشهابا طاعنا في صميم المردة ورؤوس الشياطين وحجة دامغة للباطل القائمة صروحه على أسس البهتان

1 -البصائر، السنة الثالثة، ع. 118، 18 ربيع الثاني 1357هـ/ 17 جوان 1938م، ص. 238.

والزور...فهي رسالة كريمة جامعة بحق بما يحتاجه المؤمن بتصحيح عقيدته وإزالة غياهب الشكوك والشبهات من عقله...فعلى كاهل الإحترام أرفع من صميم الفؤاد تشكراتي القلبية لهذا الأستاذ على ما قام به من خدمة جليلة لأمته وإنارته للأفكار من ظلام الجهل وطعنه بسهام العلم الصائبة صروح الشرك والأوهام»[1].

7–مضمونها: من خلال اطلاعنا على رسالة الشرك ومظاهره يمكن تقسيم ما اشتملت عليه إلى محتويين رئيسيين:

–المحتوى العام:

دعوة المسلمين في الجزائر خاصة والمسلمين عامة إلى ضرورة العمل بالكتاب والسنة والابتعاد عن البدع والخرافات الدخيلة على الدين الإسلامي، وهكذا يكون الميلي قد أقام دعوته حسب ما ذكره الدكتور أبو القاسم سعد الله على **التوحيد** الذي ابتعد عنه المسلمون، وعلى اجتناب الشرك كاستعمال الوسائط والعقائد الضارة التي نهى الإسلام عنها[2]. وعليه يمكن القول أن الميلي استهدف في رسالته هذه تجديد وإصلاح العقيدة الإسلامية؛ وهي نفس الدعوة التي حملها ودعا إليها جل رجال الإصلاح في العالم العربي والإسلامي. لأن صلاح عقيدة المسلم ونقائها يُصلح ما بعده والعكس صحيح؛ ومن صحّت بدايته صحّت نهايته كما يقول الداعية المسلم أحمد الراشد في إحدى كتبه.

---

1 –((أكرم بها من رسالة))، البصائر، ع. 174، الجمعة 21 صفر 1357هـ/ 22 أفريل 1938م، ص. 110.

2 –تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 7، المرجع السابق، ص. 179.

وقصد تقديم لمحة مختصرة عن محتوى هذه الرسالة نترك المجال لمؤلفها ليعرفنا بنفسه عن محتواها وقيمتها العقدية في ما يلي: «هذه الرسالة هي الكتاب الوحيد الذي يجد فيه المسلم ما يحتاج إليه في تصحيح عقيدته ومعرفة الحق في مسائل النزاع بين المصلحين والطرقيين، وما يتصل بها مثل الشرك، والعبادة، والبركة، والولاية، والكرامة، والكهانة، والسحر، والتميمة، والرقية، والعزيمة، والدعاء، والوسيلة، والشفاعة، والحب، والزيارة، والزردة، والوعدة، والنشرة، والغفارة، والحلف، إلى ما يقتضيه الحال، ولو لم يشتهر فيه جدال. فهذه الرسالة أول كتاب جمع تلك المسائل في إقامة حجة وكشف شبهة، وتوضيح مشتبه، وتبيين ملتبس، مع تهذيب الألفاظ وتحديد المعاني وتفصيل الأحكام من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة فيها نحو مائتين وستين آية غير المكررات ونحو مائة وستين حديثا معزوة إلى خرجيها مكشوفا عن حال أسانيدها ونقل فيها من نحو مائة كتاب معتبر، تشتمل الرسالة بعد الخطبة على ستة وعشرين بابا تقع فيما يقرب أو يزيد مائتين وخمسين صفحة بحجم يقرب من حجم الشهاب»[1].

-المحتوى الجزئي:

بعدما ركّز الميلي في دعوته إلى ضرورة تجديد وإصلاح ما أفسده الاستعمار الفرنسي وبعض الطرقيين المحسوبين عليه، انتقل إلى الحديث عن عناصر أخرى متعددة ومتنوعة، غير أنها لا تكاد تخرج عن المحتوى العام لرسالته؛ ومن بين هذه الجوانب[2]:

1 -البصائر، السنة الثانية، ع. 59، 6 محرم 1356هـ/ 19 مارس 1937م، ص. 70.

2 -تاريخ الجزائر الثقافي، ص. 179.

-الشرك: بيانه، مظاهره في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، والشرك لدى القدماء.

-أنواع العبادات والتصرفات والكرامات والولايات وما يتعلق بعلم الغيب والكهانة والسحر وما إليها.

-أنواع البدع والتصوف وألقاب المتصوفة كالقطب والبدل ثم الخرقة والشيخ والميثاق وغيرها.

-التنبيه إلى ممارسة طريقة سلب الأموال من عند الناس والزيارات وبعض الممارسات المؤثرة سلبا على العامة كالزردات.

-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

8-أثر رسالة الشرك ومظاهره في المجتمع الجزائري أثناء صدورها وردود الفعل حولها:

أ-على عامة الشعب الجزائري:

لاقت رسالة الشرك ومظاهره إقبالا كبيرا على اقتنائها وشرائها؛ وهذا بسبب الإعلانات التي كانت تصدر في جريدة البصائر مبشرة الجمهور الجزائري بشرائها واقتنائها نظرا لقيمتها العلمية، ففي خلال السنة الثانية من عمر جريدة البصائر نجد أن الأعداد التالية كلها كانت تبشر بقرب صدور رسالة الشرك ومظاهره، ومن بين هذه الأعداد: 58-59-61-62-63-65-67-68-77. ففي هذا العدد الأخير مثلا ورد بلاغ من محمد خير الدين تحت عنوان: انتظرا رسالة الشرك ومظاهره للميلي جاء فيه:

«لم تزل الرسالة تحت الطبع، المطبعة جادة في إبرازها بكل سرعة وبغاية الإتقان والإجادة، وستعلن للقراء عنها عند انتهاء طبعها»[1].

وحتى عند الانتهاء من طبع هذه الرسالة نجد أن جريدة البصائر ظلت تصدر في هذه الإعلانات والبلاغات بخصوص شرائها والانتفاع بها، ومما جاء مثلا في بلاغ الشيخ الطيب العقبي الموسوم بـ: "الشرك ومظاهره بقلم مؤرخ الجزائر وفيلسوفها الاجتماعي الأستاذ مبارك الميلي" بعد طبع هذه الرسالة: «تم طبع هذه الرسالة بل هذا الكتاب القيم الوحيد في بابه، والذي لم يسبق لعالم جزائري أن ألف في موضوعه، فجاء برهانا على ما في الجزائر اليوم من نهضة علمية إصلاحية ودعوة إلى عقيدة الحق السلفية، حقق بها المؤلف-أجزل الله له المثوبة-جميع أبواب المسائل التي يكثر الخوض فيها بين السلفيين وخصومهم، وأعطى به خير سلاح لكل مصلح يقتني نسخة منه-بشرط الفهم-في محاربة خصومه، وبالجملة فهوة العقيدة الإسلامية الخالصة، والدعوة الإصلاحية الوضحة، ولهذا قررت جمعية العلماء نشره باسمها بعد الموافقة على كل ما فيه ليكون سبا في بيان دعوتها وحجة ناهضة ضد كل من وقف في طريقها»[2].

ثم سرعان ما نجده يدعو الشعب الجزائري خصوصا والمسلمين عموما إلى اقتنائه والاستفادة منه: «وان جمعية العلماء ارتضت نشره وإذاعته بين العموم على

1 -البصائر، السنة الثانية، ع. 77، 21 جمادى الأولى 1356هـ/ 30 جويلية 1937م، ص. 215.
2 -البصائر، السنة الثانية، ع. 83، 25 رجب 1356هـ/ 30 سبتمبر 1937م، ص-ص. 267-268.

عهدتها وباسمها، وأملنا أن يقبل الشعب الجزائري خصوصا والمسلمين عموما على اقتنائه والاستفادة منه حتى يتجدد طبعه ويعم الانتفاع به والاستفادة منه»[1].

ومما جاء في مقال لأحد الأشخاص الذي رمز لاسمه بـ: (ط–ر): فهلموا أيها الإخوان وسارعوا إلى كسب هذه الرسالة التي قد كانت لكم سراجا منيرا تهتدون به إلى الصراط السوي الذي لا اعوجاج فيه، واعلموا أن الأرواح والعقول تطالبكم بتغذيتها بالعلم والعقيدة الصحيحين الذين هم قوام حياة بني الإنسان وعنوان رقيه وتقدمه، فهلا هيأتم لها ذلك كما أنكم في كل يوم مستعدون لتغذية الأجساد، وهاهو الأستاذ مبارك الميلي يسعى لكم في تغذية أرواحكم وعقولكم فقد ألف لكم تاريخ الجزائر ثم الآن هذه الرسالة»[2].

ب– على الطرقيين:

على اثر صدور رسالة الشرك ومظاهره تحرك رجال الطرقية الضالة للبحث عن مبارك الميلي قصد النيل منه والفتك به، أو النيل من رسالته والبحث فيها عن مزالق ومطبات يمكن أن تكون حجة لهم في دحضها والرد عليها، وبهذا الخصوص تطالعنا جريدة البصائر بمقال تحت عنوان: "محاولة اعتداء" بقلم عز الدين، ونظرا لأهميته أقتطف منه ما يلي: «وقد بلغنا أن أبناء (الحسين القشي) وهم من الطوائف الضالة استاءوا من قولة لجدهم منقولة في هذه الرسالة معقبة ببيان حكم الله فيها

1 –المصدر نفسه.

2 –البصائر، السنة الثانية، ع. 89، 29 رمضان 1356هـ/ 3 ديسمبر 1937م، ص. 312.

[ورد ذلك في الصفحة 279 [1]]، وبلغ بهم الاستياء والحنق إلى أن جاء ثلاثة من صغارهم إلى ميلة يوم الثلاثاء 19 أكتوبر فكلم كل واحد منهم رجلا من أعيان ميلة معلنا غضبه على مؤلف الرسالة الأستاذ الجليل الشيخ مبارك الميلي وغضب أسرته كلها موعدا ومهددا بالقتل. ويوم الأربعاء (20) من الشهر المذكور ركب أربعة من كبارهم إلى قسنطينة لتدبير مكائد ضد المؤلف وللاتصال ببعض المكاتب بإدارة العمالة لبث شكواهم لها وتقرير خطة الكيد والبطش. ويوم السبت 23 من الشهر أيضا جاء احد أولائك الثلاثة كالباحث عن المؤلف في المواضع التي يظنه جالسا بها، فلم يلتق به ولكنه انتقم لنفسه ولأسرته في زعمه بان سب المحل الذي يغشاه المؤلف فأجيب من أحد المستمعين بما يليق بعجرفته وتكالبه، وبعد أن مشى قليلا وانتهى أمام محل به بعض بني عمه رفع صوته بسب المؤلف، فكاد يؤخذ من الميليين الغيورين على الحق لولا أن ابن عمه بادر إلى وكزه وإخفائه عن الناس فانتهت الفتنة التي لم تزل لها جذور بالصدور وبودنا لو يجتمع عقلاء الميليين بكبار القشيين فيقتلعون ما علق بالصدور من تلك الجذور»[2].

وليت الأمر توقف عند هذا الحد بل استمرت نقمة هؤلاء مستمرة ومتواصلة ضد صاحب الرسالة حتى بعد صدورها بزمن طويل، وفي هذا الشأن يقول أحد

---

1 –"ومن الشائع عن حسين القشي دفين قرية سيدي خليفة جنوب ميلة قوله: ((بالحُرَيِّمْ ابْتاع سيدي ربي إلا فتشت على الدجال في السماء السابع وما لقيته))، والحريم بفتح الراء وتشديد الياء تصغير الحرام يمين السفهاء. ونسبته إلى الله اعتقاد بان له صاحبةً تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا: ونفيه لوجود الدجال تكذيب بما ورد فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ورقيه للسماء ردة كما في مختصر خليل وغيره، ومع ذلك فهو ولي مزور وذريته معظمة وإن كان المعظّمون لهم قد يعظمون الكلاب تعظيمهم".

2 –البصائر، السنة الثانية، ع. 84، 24 شعبان 1356هـ/ 29 أكتوبر 1937م، ص. 271.

الكتاب الذي رمز لأسمه بـ: (ط. ر) بعد أن وصف لنا حالة الألم والاستياء التي اعترته بعدما اطلع على مقال في جريدة البصائر حول محاولة الاعتداء على مؤلف الرسالة: «فتألمنا كثيرا واستأنا من ذلك الكيد الذي يكيده بعض الأشرار من أبناء المرابطين للأستاذ مبارك الميلي لما قال كلمة الحق واتى بالواقع وكشف عن خباياهم ودسائسهم ومنكراتهم التي كادت تقضي على حياة هذه الأمة لولا أن الله أراد بها خيرا فبعث إليها علماء عاملين مخلصين يسيرون بها إلى حيث كمالها ورقيها»[1]. ثم يختم مقاله بعبارات مؤثرة ومؤسفة لما لحق الميلي من سب وشتم من طرف هؤلاء: « فقد قام أبناء المرابطين يدوسون كرامة الأستاذ بالسب والشتم ويرتحلون له من بلد إلى آخر باغين له كل شر وخديعة جزاهم الله عنه شرا وهلاكا وعليهم تدور الدوائر»[2].

9-أثر فكر الشيخ مبارك الميلي في الواقع الجزائري المعاصر:

باعتبار رسالة الشرك ومظاهره تعود في تأليفها إلى سنة 1937م فإنها باتت تُعد من التراث الجزائري الأصيل، وجزء كبير من هذا التراث هو اليوم إما انه مهملا أو مهمشا من طرف شريحة واسعة من المثقفين الجزائريين. وهذا إما للجهل به ونكرانا لذاته العلمية والجري وراء كل ما هو حديث ومعاصر من كتب ومؤلفات فقهية وعقدية وفكرية؛ أو أن هذا التراث لا يزال مغمور وغير معروف لدى هذه الشريحة، وهذا ما سيكشف عنه هذا الملتقى العلمي.

وانطلاقا من هذا التصور يمكننا طرح السؤال التالي: إذا كانت رسالة الشرك ومظاهره تعالج واقع عقدي جزائري في ظل الاستعمار الفرنسي، فهل لم نعد في

1 - البصائر، السنة الثانية، ع. 89، 29 رمضان 1356هـ/ 13 ديسمبر 1937م، ص. 312.

2 -البصائر، السنة الثانية، ع. 89، 29 رمضان 1356هـ/ 13 ديسمبر 1937م، ص. 312.

حاجة إليها نحن اليوم في ظل واقعنا العقدي المعاصر؟. يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بلا وألف لا لأن عامل الزمن لم ولن يتمكن من قتل جوهر هذه الرسالة؛ وهذا عكس بعض الرسائل التي أُلفت أثناء النوازل التي تعرض لها الشعب الجزائري[1]: كرسالة أبي العباس أحمد بن يحي بن محمد الوانشريسي التلمساني (ت914هـ/ 1508م) الموسومة بـ: أسنى المتاجر في بيان من تغلّب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر"، ورسالة الأمير عبد القادر الجزائري الموسومة بـ: حسام الدين لقطع شبه المرتدين..الخ.

وعليه يمكن القول أن رسالة الشرك ومظاهره رسالة صالحة لكل زمان ومكان، رسالة كل الجزائريين ومن ثمة كل المسلمين الذين يريدون عقيدة إسلامية سليمة وصحيحة وخالة من كل الأدران والشوائب. وحاجة المسلمين عموما اليوم إلى هذه الرسالة أعتقد أنها تفوق حاجتهم إليها زمن تأليفها، كون مظاهر الشرك التي حاربها الميلي وحذر منه كانت مستهدفة من طرف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وزعماء الإصلاح في مختلف الأقطار العربية والإسلامية. بينما الشرك ومظاهره في وقتنا الحالي بات مسكوت عنه تحت غطاء العديد من المبررات.

خاتمة:

إذا كان الميلي ذلك الفتى الذي بارح قريته متخفيا هروبا من جحيم الجهل والظلام نحو نور العلم والمعرفة، ولاقى في ذلك صعوبات كثيرة: ظلم ذوي القربى، البعد عن الأهل، مطاردته من طرف الاستعمار وأذنابه والتضييق على نشاطاته

1 –حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية، دراسة وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص–ص. 5–6.

وتحركاته، الطعن في كرامته بالسب والشتم من طرق بعض الطرق الضالة، وأخيرا معاناته مع المرض الذي كان سببا مباشرا في انتقاله إلى الرفيق الأعلى. فالمرء هنا يلاحظ أن مبارك الميلي لم يستلم رغم كل هذه الظروف والصعوبات التي يعجز الإنسان عن وصفها ناهيك عن معايشتها، غير أنه مضى في طريقه غير آبه لا بهذا ولا ذاك، والمطلوب هنا من شبابنا اليوم الإقتداء بهذا الرجل العظيم وتقديم كل ما هو غال ونفيس في سبيل النهوض بهذا الوطن العزيز والرقي به على غرار بقية الدول المتقدمة. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن ما جاء في رسالة الميلي يعكس بصدق وبكل فخر واعتزاز المستوى الفكري الذي وصل إليه الفرد الجزائري في ذلك الوقت، فكر عصامي نابع من إرادة وصبر وعزيمة لا تقهر، وهذا الإنتاج الفكري الجزائري هو بمثابة رسالة واضحة للذين يتهمون علماءنا ومشايخنا وأساتذتنا بالتطفل والتقليد لغيرهم، وعليه فحري بنا أن نحافظ على هذا المكسب ونعمل كل ما في وسعنا للتعريف بهذا المنتوج العقدي الجزائري على المستوى الوطني والدولي، وذلك من خلال إعادة طبعه وترجمته إلى لغات أجنبية حتى يكون مرجعية لغيرنا من الشعوب الإسلامية.

وفي الختام نتمنى أن نكون قد ساهمنا ولو بالقليل في سبيل خدمة هذا العالم الجليل الذي اعترف بفضله كل من عاصره وعرف قدره، كما نكون قد ساهمنا في إثراء هذا الملتقى العلمي من خلال هذه المداخلة المتواضعة التي كتبناها في عجالة من أمرنا نظرا لضيق الوقت والتزامنا العلمي مع بداية العام الدراسي الذي يتطلب تحضيرا مكثفا ودقيقا. ولن ندعي الصواب ولا الكمال فلا شك أن هذا العمل لا يخلو من مطبات وهفوات يقع فيها كل باحث ينشد الحقيقة العلمية.